تمهيـــد

الأصالة و المعاصرة

التراث و التجديد و التنوير

أصبحت الحاجة إلى التجديد ملحة فى ظل هجمة العولمة ومحاولة بعض القوى الهيمنة على العالم بما فيه عالمنا العربى . وفى البداية لابد من تقرير حقيقة مؤداها أن التجديد لا يأتى من فراغ وليس مرتعًا لكل شخص يدعى التجديد ففى هذه الحالة تحل الفوضى؛ ومن ثم يجب ألا يقبل على التجديد إلا من لديه ملكات و أدوات وآليات تمكنه من ممارسة هذه العملية غير المتاحة إلا لقلة من أبناء كل أمة؛ لأن أى نوع من التجديد لابد أن ينهض على أسس أهمها الاجتهاد المعتمد على التفكير و النظر والتأمل و البحث والمقارنة والترجيح المستند إلى الأدلة العقلية المنطقية كالقياس والاستنباط إلى جانب الأدلة النقلية والإضافة العلمية لتحقيق مزيد من الثروة الفكرية[1].

وتواجه الأمة العربية الإسلامية تحديات هائلة تهدد صميم هويتها و حقها فى البقاء؛ مما يحتم الاجتهاد من أجل التجديد للرقى بالأمة و الحفاظ على هويتها المتميزة بين سائر الأمم. ولا يتم هذا الاجتهاد إلا من خلال الدرس والمثابرة على البحث الجاد و سوق الأدلة و الحجج على سداد الرأى وتعضيدها بالخبرات الجديدة دونما انحياز ذاتى مسبق ولا تقديس للموروث بل لابد من مراجعته فى ظل الظروف العصرية الجديدة لإعادة إنتاج منجزات التراث مع الإفادة من تجارب الآخر بما يتلاءم مع مقومات الهوية العربية الإسلامية.

وقد اهتم العلماء فى شتى العلوم بقضية التجديد عبر العصور المتلاحقة، ويلاحظ أن القدماء فى فهمهم للتجديد ركزوا على شقه العملى التطبيقى حتى يكون حركة دائبة متصلة بالحياة[2]، كما ربطوه

هم والمحدثون بالاجتهاد، فلا بد أن يكون المجدد مجتهدًا وأن يراعى متغيرات الحياة وتطوراتها.

ويتضمن مفهوم التجديد دلالتى الإحياء والتغيير؛ فليس التجديد مقصورًا على إحياء القديم المتوارث وبعثه فى شكل جديد، بل لابد من الإضافة إلى القديم و استيعاب التطورات والتغيرات المعاصرة؛ و من ثم يتضمن تجديد اللغة العربية إحياءها و بعثها و تخليصها مما أصابها من ركود لتلحق بركب الحياة بما يحويه من مستجدات.

و بناء على هذا فلابد أن ينهض تجديد الفكر العربى على "تركيبة عضوية يمتزج فيها تراثنا مع عناصر العصر الراهن الذى نعيش فيه"[3]؛ ومن ثم تتحقق الأصالة والمعاصرة فى التجديد المنشود من خلال الأخذ بما فى التراث من جوانب مضيئة مزهرة و نبذ ما فيه من مظاهر التخلف و الخمول والجمود، ويستلزم هذا إجراء حوار حر بناء مع منجزات التراث، وهذا الحوار لا يقوم على الرفض المطلق ولا التسليم التام بكل ما هو موروث، فلا بد من إضفاء الملامح العصرية الابتكارية على هذه المنجزات لتخرج فى ثوب قشيب و قالب فكرى جديد؛ ومن ثم فإن التجديد هو " إعادة تفسير التراث طبقًا لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد و الأصالة أساس المعاصرة، والوسيلة تؤدى إلى الغاية، التراث هو الوسيلة والتجديد هو الغاية وهى المساهمة فى تطوير الواقع وحل مشكلاته والقضاء على أسباب معوقاته وفتح مغاليقه التى تمنع أى محاولة لتطويره" [4] .

وتتضمن الأصالة دلالة الديمومة والاستمرار، فى حين تتضمن المعاصرة الحركة التقدمية فى مركب الديمومة المكون للأصالة[5]. و تبدأ أصالة العربى من " كونه يتكلم لغة عربية. إذن فلا بديل لنا إلا أن نرعى هذه اللغة على ألسنة أبنائها و أقلام كتابها؛ فهى بطاقة الهوية التى تجعل من العربى عربيًّا"[6]. ولتحقيق المعاصرة العربية لابد أن تجسد اللغة العربية ما فى العصر من منجزات علمية وفكرية؛ لأن اللغة وعاء العلم و الفكر، وأتصور أنه لكى يحدث هذا لابد أن يكون المجتمع العربى منتجًا للثقافة و العلم والفكر لا مجرد مستهلك لمنجزات الآخر تلك المنجزات التى تم التعبير عنها بلغته لا باللغة العربية.

وأعتقد أن الأحرى فهم المعاصرة على أنها مواكبة الفترة الزمنية الحالية الجارية التى نعيش فيها نحن العرب وليست بمعنى الأخذ عن الآخر واجترار ما لديه من أنماط ثقافية، ولا يعنى هذا الانغلاق على الذات العربية، و إنما يتم التأثر بما لدى الآخر من منجزات حديثة تتلاءم مع طبيعة الهوية العربية الإسلامية المختلفة عن هوية الآخر ثقافيًّا؛ ومن هنا فلا مفر من مراجعة التراث و ثقافة الآخر مراجعة نقدية فاحصة. إذن تتحقق المعاصرة من خلال تنمية الحس النقدى لمنجزات التراث الأصيل و منجزات الآخر الحديث.

والتجديد ذو صلة وثيقة بالرأى الحر المستند إلى الأدلة النقلية والعقلية؛ ومن ثم يقود التجديد إلى التقدم والرقى فى شتى مناحى الحياة[7]؛ لأن التجديد وثيق الصلة بالابتكار الناشئ عن الشعور بالحرية الفردية والقومية، وأعلى درجات هذا الابتكار ذلك النوع الذى ينبع من التفرد[8].

ويبدو من الدلالة المعجمية للتجديد أنه يحمل دلالة التحديث؛ فهو مصدر الفعل جَدَّد بمعنى صيَّره جديدًا. والجِدَّة نقيض البِلَى والخَلَق. والجديد ما لا عهد لك به[9]؛ ومن هنا يرتبط التجديد بالحداثة.

ويرتبط التجديد بالإصلاح؛ فغاية أى تجديد إنما هى الإصلاح من خلال التغيير بإحداث تعديلات بالإضافة والنقصان بعد مراجعة متأنية فاحصة لما يراد إصلاحه.

ولا يتأتى هذا التجديد إلا بعد مراجعة اللغة ؛ لأنها وعاء الفكر والوسيلة الفعالة لنشأة المعرفة الإنسانية وتكوينها وتطويرها ؛ لذا فقد فرض كل فكر جديد لغته، وبدأت كل حركة جديدة بتجديد اللغة أولاً ؛ ومن ثم تبدو أهمية مراعاة التغير اللغوى عبر العصور من خلال الأدب للتعبير من خلال ألفاظ و مصطلحات مبتكرة عن مستجدات الحياة بما تحمله من قضايا و أفكار ذات دلالات جديدة.

هوامش التمهيد

(1) انظر : إبراهيم على أباالخشب : تجديد الفكر الإسلامى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص 37، 108- 135.

(2) انظر : أمين الخولى : المجددون فى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م، ص 12- 19، 31- 38، 75- 77.

(3) زكى نجيب محمود: تجديد الفكر العربى، دار الشروق، القاهرة، ط8، 1408هـ = 1987م، ص 14.

(4) حسن حنفى : التراث و التجديد ؛ موقفنا من التراث القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص11.

(5) انظر : شكرى عياد : الرؤيا المقيدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978م، ص 29.

(6) زكى نجيب محمود: ثقافتنا فى مواجهة العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م، ص 67.

(7) انظر : شكرى عياد : اللغة و الإبداع ؛ مبادئ علم الأسلوب العربى، إنترناشيونال برس، القاهرة، ط1، 1988م، ص 110، و حسن حنفى : السابق، ص 93.

(8) انظر: شكرى عياد : الرؤيا المقيدة، ص 22- 25.

(9)انظر مثلاً : ابن دريد (محمد بن الحسين، ت321هـ): جمهرة اللغة، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، د.ت، مادة جدد، والزمخشرى

(محمود بن عمر ت 538هـ): أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985م، مادة جدد، وابن منظور (محمد بن مكرم ت 711هـ): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مادة جدد، والفيروزابادى (محمد بن يعقوب ت 817هـ): القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية، القاهرة، 137هـ = 1977م، مادة جدد، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ط3، 1405هـ = 1985م، مادة جدد.